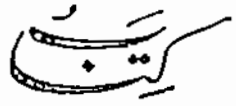

تاريخ بيروت واخبار الامراء البُحْتُريين من بني العَرَب

لصالح بن يحيى

سعى بنشره وتهذيب عبارته وتعليق حواشيه

الاب لويس شيخو اليسوعي

مقدمة ناشر الكتاب

بينما كنّا نسرّح النظر في خزانة كتب باريس الكلية ونستنسخ بعض فرائد مصنفاتها الخطّية التي تشهد لمؤلفيها بطول الباع في الفنون الكتابية عثرنا على كتاب موسوم بتاريخ بيروت. فبادرنا الى مطالعته فما كان منّا بعد فحص اوّل صفحاته الّا ان هتفنا فرحين هذه الضالّة التي كنا ننشدها والكريمة التي نقصدها. فاخذنا من ثمّ ينقلبه على جناح السرعة. غير انهُ في اثناء شغلنا اضطرّتنا الحاجة الى ان نبارح العاصمة ونعود الى هذه الديار. فكلّفنا احدّ اصحابنا وهو العالم الدكتور الاب شابو بان يرسم لنا بالفوتغرافية ما لم تسنح لنا الفرصة بنسخه فجاء شغلهُ وافيًا بالمرام

والنسخة الاصلية فريدةٌ في جنسها لم يُعرف لها شبيه في مكتبة غيرها وهي تشتمل على ١٣٥ ورقة من قطع ١٢ وفي كل صفحة خمسة عشر سطرًا مخطوطة بالخط النسخي الدقيق. كتبها المؤلف وزاد عليها عدّة افادات علّقها عليها في الحواشي

ولهذا الكتاب اهميّة كبرى من حيث الامور التاريخية المودعة فيه فانّ صاحبهُ اثابهُ الله جمع فيهِ كلّ ما امكنهُ من الحوادث الحريّة بالذكر عن بيروت وقدمها وآثارها وفتوحاتها ثم انتقل الى صفة الاحوال الطارئة عليها منذ القرن السادس للهجرة الى التاسع. وهناك يسهب الكلام في تواريخ بني بُحتر المعروفين بامراء بني العرب الذين كانوا يملكون على قسم كبير من غربيّ لبنان وتولّوا زمنًا طويلًا على بيروت وما جاورها من الارباض والقرى باسم

ملوك مصر من دولة الشراكسة. واكثر ما رواهُ في هذا القسم من كتابهِ لا يكاد يوجد لهُ اثر عند غيرهِ من الكتّاب فلولاهُ لبقيت هذه الحوادث نسيًا منسيًا. ومن محاسنهِ انهُ ذكر امورًا جمّة تختص بامراء الفرنج الصليبيين ومآثرهم في هذه السواحل. ولقد طالما صمّم المستشرقون على نشر هذا التاريخ ولكن حالت دون اتمام غايتهم اغلاط كثيرة لغويّة وبعض الفاظ وتراكيب اشبه بالعجمة العامّة منها بانشاء هذا الكتّاب وقد اخذنا على نفسنا ان نهذّب لفظهُ وننقّح كلامهُ حيثما لا يمسُّ هذا الاصلاح شيئًا من المعنى

وطريقة المؤلف في كتابتهِ فهي ساذجة متبادرة الى الفهم لم يتحرَّ بها سوى افادة آلهِ الشرفاء ليبقي لهم اثرًا يفتخر بهِ الخلف بعد السلف. وجعل لتاريخهِ ابوابًا وتقاسيم يتمكن بها القارئ من احراز فوائدهِ الشتى. وكثيرًا ما يلخص في اوّل الفصول ما سبق ذكرهُ تسهيلًا للمطالع

امّا المؤلف فلم نعلم شيئًا من اخبارهِ سوى ما يُستخلص من اثناء كتابهِ. وكان من سلالة بني امراء الغرب. عاش في اواسط القرن التاسع للهجرة. وكان حريصًا على جمع آثار اجدادهِ كلفًا بتاريخ بلدهِ. ويظهر من خلال كلامهِ انهُ كان ثقةً لا يروي شيئًا الّا شفعهُ باسانيدهِ وايّدهُ بحججهِ وربّما ذكر ما شاهدهُ بنفسهِ عيانًا كما ينبئ على ذلك رسم امور دقيقة لا يأتي عليها الّا الشاهد العين

وقد احببنا ان نتحف بهذا الكتاب في بدء مجلّتنا قرّاءنا الكرام وسننشرهُ فيها تباعًا. ولا غرو ان البيروتيين على مختلف اديانهم يقبلون على مطالعتهِ لما يجدون فيهِ من عميم الجدوى

هذا ونأثر بتحسين الكتاب قد رأينا ان نذيلهُ بشيء من الشروح والملاحظات التي من شأنها ان تزيدهُ فائدة ومنفعة. وسنشكر كل من ينبّه خاطرنا الى بعض الافادات التي لعلّها تفوتنا سهوًا. وعلى الله الاتكال في كل الاحوال

فاتحة الكتاب

(١٠) بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من امرنا رشدا (سورة الكهف)

الحمد لله الأول بلا ابتداء الازليّ الوجود. والآخر بلا انتهاء السرمديّ (١ المعبود. وسع علمهُ كلّ شيء من معدوم وموجود. وقدّر الآجال والارزاق للمحروم والمجدود. وفتح لنا من فيض جودهِ كل بابٍ مسدود. وألهمنا الدُّعاء بالرحمة على الآباء والجدود. وصلّى الله على سيدنا محمّد وآلهِ وأصحابهِ ذوي السعود. ما اغتمّ فاقدٌ بمفقود. وسُرَّ والدٌ بمولود. صلاةً دائمةً ابديّةَ الخلود

وبعد فيقول العبد الفقير الى الله تعالى صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين ابن امير الغرب لطف الله بهِ اني اردتُ ان اجمع شيئاً يستفيد بهِ الخلَف من اخبار السلَف. من ذريّة مُختَّر بن علي امير الغرب ببيروت فجمعتُ هذه التذكرة معتذرًا الى الواقف عليها من ركّة اللفظ ومواقع الخطإ بعد الاجتهاد على صحّة النقل وحذف الفضول لاني لا اريد ان اكون مقالياً في السلَف فأصفهم بازيد ممّا فيهم او حسودًا فأنقصهم بما ليس فيهم. وقد جعلتُ هذه التذكرة وقفاً على البيت لا تخرج عن الخلف ولا تُعار لغيرهم لأنها كتاب لا ينتفع بهِ (٢و) غير اربابها. . . (٢ ومن قصد بهِ خيرًا او اصلاح خلل فيهِ صوابٌ فأجرهُ على الله فانَّ الله لا يُضيع أجر المحسنين. جمعتُ ذلك باوضح برهان واصدق دليل. ولستُ فيهِ كخابط عشواء او حاطب ليل. وقد يضلُّ المتأوّب في الدرب السالك. ويهتدي المُدلج في الليل الحالك. فضلًا عن انَّ مناقبهم موصوفة ومآثرهم معروفة كما قيل :

• هذه الاعداد تدلّ على صفحات الكتاب وجهها (١) وظهرها (٢)

١) في الاصل « ازليّ » بدون اداة التعريف « وصَرْمدي » بالصاد الى غير ذلك من الاغلاط الصرفية والنحويّة البيّنة الخطإ مما ليس في اصلاحها كبير امر فاصلحناها ولم نُشِر اليها وكفى بهذا التنبيه اشارة ٢) هنا في الاصل سطران حُكّا بمِبْراة

آثارهم تُنبيك عن أخبارهم حتّى كأنّكَ بالعيان تراهُمُ
تاللهِ لا يأتي الزمان بمثلهم ابدًا ولا يحمي الثغورَ سواهُمُ (١

ولمّا كان المكان متقدّمٌ على المتمكن توجب التبدّيَ بذكر الوطن وان كان الساكن افضل من المسكن

ذكر بيروت واخبارها وقِدَمها وفتوحاتها ومن اشتهر من اهلها الى غير ذلك من أحوالها

بيروت (٢ مدينة قديمة جدًّا (٣ يُستدَلُّ على قِدَمها من عتق سورها (٤ ومع عتقهِ

---

١) وجاء في هامش الكتاب ما نصُّهُ :

نجومُ سماءٍ كلّما غابَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوي اليهِ كواكبُهْ
أضاءت لهم احسابهم ووجوههم دجى الليل حتّى نظّم الجزعَ ثاقبُهْ

وقولهُ: ما لسماءٍ أن تُعَدَّ نجومُها اذا عُدَّ آباءٌ لهم وجدودُ
فاسماؤهم تلك الوادي نصولها الى اليوم لم تُعرَف لهنَّ عُهودُ

٢) انَّ (اسم بيروت) قد اختلف فيهِ العلماء فمنهم من قال انَّهُ نسبة الى بَرِيت المذكور في سفر القضاة (٩ : ٤) وهو رأيٌ ضعيف رواهُ اسطفان البيزنطي (في مادّة بيروت) وذهب اليهِ بوشار (Bochart, *Canaan* XVII, p. 859) وكرُويزر (Creuzer, *Symbolik*) من المحدثين لكنَّ متن الكتاب العزيز ينفي هذا الزعم والكلام فيهِ عن بعض معبودات آل شكيم (نابلس) وفجرة بني اسرائيل (قض ٨ : ٣٣). ومنهم من رأى ان بيروت هو اسم الاهة (Βηρσώ) ذكرها فيلون الجُبَيْلي (Historicorum Gr. Fragm, II , ed. Didot, III p.136) وقد اوردها في الفقرات الباقية من تاريخ سَنْكُنْيتون وهو يجمع في روايتهِ بين اسمها واسم عَشْتروت بحيث يُستَدَلُّ من قولهِ انهما اسمان لمسمًّى واحد. وعشتروت هذه هي إلاهة الفينيقيين وتعدّدت اسماؤها (Seldenus, *de Diis Syrris*, 231-260) وهي ايضًا المعروفة عند العرب بالزُّهَرة والرومان يدعونها فَنُوس (Vénus). وهذا رأي مقبول لا نجزم بصحّتهِ. ويلحق بهذا الرأي الثاني رأي آخر انَّ بيروت دعيت بهذا الاسم نسبةً الى شجرة السَّرو (بالعبرانية בְּרוֹשׁ وباللغات الآرامية ברתא). وكانت هذه الشجرة رمزًا لعشتروت (راجع الفقرة ١١ من فقرات سَنْكُنْيتون). والاب مرتين اليسوعي يرجّح هذا الرأي في كتاب تاريخ لبنان (ص ٢٨٣). ولِمِسْتياوس المِلَطي الكاتب القديم رأي يخالف ما تقدّم وهو انَّ بيروت لفظة فينيقيّة اصلها «أبيروت» اخذت من لفظة «أبير»

فهو محدث عليها اتخذهُ الاولون من خراب كانت متقدمة اقدم منهُ بمدد كثيرة لأننا

بمعنى الشجاع فيكون معناها القوة لمتنها وحرارتها. وأبير ابتنَّ معناها الثور وهو رمزٌ عن القوة كُني به عن عشتروت السابق ذكرها

هذا وانَّ الرأي الارجح انَّ اسم بيروت اشتقَّ من « بِئْروت » وهو بالبيرانية جمع لبئر وذلك امَّا لما حفر بها اوَّل مكانها من الآبار الباقي آثارها الى يومنا واما لعذوبة مياه هذه الآبار كما زعم اسطفان البيزنطيّ من كتَّاب القرن الخامس للمسيح. وهذه الآبار لا تزال الى يومنا هذا يُنزَل اليها من اماكن معلومة ويتفذ بعضها الى بعض على مسافة بعيدة وماؤها عذبٌ كثير لا ينقطع تجتمع منهُ عيون في انحاء البلد

ويتصل بالبحث عن اصل تسمية بيروت بحثٌ آخر ذهب اليهِ بعض الكتبة وهو انَّ لبيروت اثرًا في الكتاب الكريم ويزعمون ان بيروتة او بيروتاي المذكورة في سفر الملوك الثاني (٨ : ٨) وفي نبوة حزقيال (٤٧ : ١٦) هي بيروتنا الساحلية الفينيقية ولكنَّ بطلان هذا الزعم يتَّضح من وجوه شتَّى. وكفى بنصّ الكتاب شاهدًا فانهُ يروي في هذا الفصل محاربة داود لهدد عازر ملك صوبة. وكانت مملكتهُ متاخمة لحماة بجوار نهر الفرات (راجع عدد ٣ من الفصل ٨ من سفر الملوك الثاني) ومن ثمَّ بعيدة عن بحر الشام ويزيد هذا البرهان قوَّة ما ورد في سفر حزقيال (٤٧ : ١٦) حيث يصف تخوم ارض الميعاد من جهة الشمال فقال : « هذا تخم الارض من جهة الشمال . من البحر الكبير على طريق حثلون وانت آتٍ الى صدد حماة وبيروتة وسبرائيم التي بين تخم دمشق وتخم حماة » فيظهر صريحًا مما تقدَّم ان بيروتة او بيروتاي هذه لم تكن مدينة ساحليَّة وانما موقعها في داخل الارض بين حماة ودمشق

٣) انَّ بيروت مدينة عريقة في القدم ذلك امرٌ اتَّفق عليهِ جميع اصحاب التاريخ لكنَّما الآراء تتفرَّق في اسم بانيها وزمانهِ فان آصحنا الى مزاعم الكتَّاب الاوَّلين آنسنا من اقاويلهم ما كان اقرب الى الخرافات منهُ الى اليقين. فمن ذلك قول سنكُنيتن في نغرتهِ الثانية انَّ الاله ايل او عليون هو باني مدينة بيروت. وكان ايل ملكًا على جبَل (جُبَيْل) فاقترن بامرأة تدعى بيروت فسمَّى بها المدينة الحديثة التي ابتناها. وايل هذا لهُ عدَّة اسامٍ على اختلاف الامم المتعبِّدة له. فالفونيقيُّون كانوا يدعونهُ ايلًا والآراميُّون بَعْلًا والسوريُّون مُولكًا او ملكًا والروم يعرفونهُ بساتورن والعرب بزُحَل. وزاد نُنُّوس المؤرخ تصريحًا على قول سنكنيتون في كتاب ديونيس : (Dyonisiaques, XLI, v. 67-91) فقال « انَّ بيروت هي اوَّل مدينة بناها ايل بنفسهِ . . . وهي وحدها وُجدت قبل جميع الارض وتقدَّمت الشمس التي يستنير النهر بضيائها ». ثمَّ اخذ نُنُّوس بعد قولهِ هذا يطنب بمديح بيروت فدعاها « جرثومة الحياة وظئر المُدُن (μίσαν βίου, πολίων τροφὸν) الى غير ذلك من الصفات الحسنة المشعرة بسموّ اعتبارهِ لهذه المدينة . هذا ما اتت بهِ مخيِّلة الشعراء وقد يجوز للشاعر من تزيين الباطل وتمويه الحقيقة ما لا يسوغ لغيرهِ . وانما يُستخلص من هذه الترَّهات الباطلة انَّ بيروت من اقدم بلاد الله بناء وعمرانًا

نجدُ في السور المذكور قواعد من الرخام واعمدة كثيرة من الحجر المانع(١ الذي قد تعب الاولون في عمله ونقله وأنفقوا عليه اموالهم. فدلَّ ذلك على انها من خرائب قديمة كانت عظيمة البناء جليلة المقدار فاستهانها الذين جاؤوا بعدهم وجعلوها في السور المذكور مكان الحجارة التي لا قيمة لها لاستغنائهم عنها بكثرة امثالها من الخرائب. ودلَّ ذلك على انَّ العمائر الاولى كانت اعظم من الثانية. ونجد ايضاً من اعمدة هذا الحجر المانع شيئاً كثيراً قد جعلوهُ تفاريق في البحر لاساس سور يُظنُّ عليه انهُ من عهد الخرائب الاولى المذكورة. ويُقال عن السور الذي من جهة البحر انهُ عُمِّر وخرب ثلاث مرَّات وقد اكل البحرُ هذه الاسوار وفاض الماء الى داخل كلٍّ منها لمرور الازمان وتواتر الدهور فسبحان الدائم على الدوام(٢. وذكر المسعودي انَّ اعمدة الحجر المانع معدنها باسوان ومنها تجلب الى سائر البلاد

(ستأتي البقيَّة)

امَّا اذا انتقلنا الى ما يُشتَمُّ منهُ رائحة اليقين من منقولات القرون التابعة فنجد انَّ المؤرخين يعزون اهل بيروت الى الكنعانيين ويجعلون مدينتهم من اوَّل مستعمرات جُبَيل احتلَّها الجبيليون بعد الطوفان بزمن قليل. ويدعون بانيَها جرجاوس او الجرجي خامس ابناء كنعان ولذلك دعيت بيروت مدَّةً «جريس». هذا ما نقلهُ ادريخوميوس في كتاب عجائبه (Adrichomius, *Miscellanea*) ووافقهُ عليه غيلموس الصُّوري (في تاريخ الحروب المقدسة الكتاب ١١ الفصل ١٣). وكانت بيروت احد المراكز لعبادة البعل يتزاحم فيها الاهلون لتأدية فروضات دينهم لهذا الاله في هيكل عظيم شيَّدوه على اسمه. وبنوا لهُ هيكلاً آخر فوق مدينتهم على مسافة خمسة اميال منها كانوا يحجُّون اليه زرافاتٍ. ولا تزال آثار هذا المقام الى يومنا بجوار قرية بيت مري وهي تُعرف بدير القلعة ٤) هذه اللفظة اثبتناها في الاصل وهي منسوخة فيه

١) هو الرُّخام الحبَّب (*granit*) الذي معدنهُ في مصر العليا عند أسوان تُنقل منها الى انحاء سوريَّة

٢) انَّ ما ذكرهُ المؤلف عن اسوار بيروت يصحُّ ايضاً على سائر انحاء البلدة فانك اذا استقريت نواحيها وجدت آثاراً كثيرة تنطق عن قدم هذه المدينة. فمنها قسمٌ عند الحيِّ المعروف بحيِّ الجميِّزة عند كنيسة الآباء الفرنسيسكان الحديثة ومنها بقايا عند كنيسة القديس جرجس الكاتدرائية في المحلِّ المعروف بالرجال الاربعين وكانت هناك يمة قديمة على اسم الاربعين شهيداً. ومنها ايضاً عند باب الدركة وعلى عتبته يقرأ الى يومنا هذا باليونانية « ايها الداخل في هذا الباب اذكر الرحمة » الى غير ذلك من الآثار كالاعمدة والنواويس والكتابات التي احرز منها نصيباً كبيراً سُيِّاح الاجانب فنقلوها الى بلادهم. امَّا النقود والمصكوكات القديمة فهي اكثر من ان تُعَدّ وفي متحف مدرستنا الكليَّة نيِّف ومائة منها. ولدى العلَّامة الدكتور جول روفيه احد مدرِّسي مكتبنا الطبي مجموعٌ وافرٌ منها وكذلك في متحف الكليَّة الاميركانية. وفي بعض اعداد مجلَّتنا سنبحث ان شاء الله في هذا الموضوع لاتِّساع مادَّته. فاكتفينا هنا باليسير